بريشتينا .. ملهمة النضال الشعبي

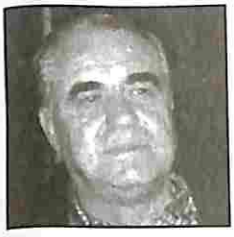

عبداللطيف الأرناؤوط
- سورية -

كوسوفا .. مقاطعة في البلقان .. يسكنها ما ينوف على مليوني نسمة من جذور القبائل الإليرية ... وهي أصول الشعب الألباني. وضمتها عصبة الأمم عام ١٩١٨م بعد الحرب العالمية الأولى إلى المملكة اليوغسلافية على إثر توزيع منطقة البلقان .. بعد أن كان العثمانيون يسيطرون عليها ، وشارك أبناؤها الألبانيون في بنائها دولة مستقلة، فقدموا تضحيات كبيرة مع سواهم من الشعوب التي كان يتألف منها الكيان اليوغسلافي ، غير أن الصربيين ظلوا ينظرون إلى الشعب الألباني المسلم نظرة دونية ، متجاهلين الحقوق التي منحت للأقليات العرقية في إطار يوغسلافيا منطلقين من نظرة يمليها التعصب العرقي والديني ، وقد بذلوا كل مافي وسعهم لطمس الهوية الألبانية في كوسوفا. ومارسوا معهم صنوف الترهيب والترغيب للتخلي عن وطنهم الأم والهجرة إلى مكدونيا وتركيا وألبانيا ، بل ضنّوا عليهم حتى بلون من الحكم الذاتي الذي يصون خصوصيتهم ، ويحفظ لغتهم ودينهم ، لكن أبناء كوسوفا لم يتحولوا عن إيمانهم بوطنهم وعدالة قضيتهم ، فقد استطاعوا خلال انتفاضات تاريخية متكررة أن يرغموا الصرب على منحهم حكماً ذاتياً لم يطل أمده ، إذ سرعان ما كان يتنكر حكام يوغسلافيا لوعودهم ، ويتراجعون عما أرغموا على منحه .

ومع أن الألبانيين في كوسوفا عمدوا إلى المطالبة السلمية لنيل حقوقهم ، إلاّ أن قادة يوغسلافيا بزعامة الإرهابي (سلوبودان ميلوسفيتش) صموا آذانهم عن المطالب القومية وواجهوها بالحديد والنار ، فزجوا الآلاف في السجون والمعتقلات ، وضيقوا الخناق على الشعب الألباني في كوسوفا ، وقتلوا الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال، وكمّوا أفواه المطالبين بحرية التعبير ، فأغلقوا المعاهد والمدارس والجامعات التي تعتمد اللغة الألبانية في التعليم في كوسوفا ، وسلطوا رجال المخابرات الصربية وأجهزة أمنهم لتفتيش البيوت وفرض أقصى العقوبات بحق من تسول له نفسه الهمس بالهموم الوطنية.

الأدب في كوسوفا

والأدب في كوسوفا هو جزء من الأدب الألباني لغة وتطلعات ومشاعر ، فقد حمل المثقفون من أبناء كوسوفا بالإضافة إلى هموم قضيتهم خلال تاريخها النضالي رسالة الدفاع عن وحدة الشعب الألباني ، ويعدون أنفسهم جزءاً منه ، فتغنوا بانتصارات ألبانيا في كفاحها الطويل للأعداء ، فقدموا آلاف الشهداء مساندة لوطنهم الأم.

على أن سكان كوسوفا الألبان كانوا يحاربون على أكثر من جبهة ، فكان أدبهم يعكس المآسي التي رزحوا تحتها بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. كما يعكس تطلعاتهم الوطنية في التحرير والاستقلال ... وإن كانت هذه المطالبة تخمد أحياناً تحت الظروف السياسية السائدة ، فقد مرت مدة كان فيه الاتحاد السوفيتي يعدون القوميات المختلفة في بلدان المنظومة الاشتراكية بحلّ قضاياها بعد الحرب ، لأن الظروف الدولية تفرض مواجهة خطر النازية والفاشية ... مثلما حاولوا حل مشكلة القوميات بدعوة أممية تضع هذه القوميات نظرياً على قدم المساواة في إطار منظومة البلدان الاشتراكية ، غير أن الخلاف بين (تيتو وستالين) وانعزال يوغسلافيا قد فجّر المسألة القومية فيها ، فقد دُفع « تيتو » إلى منح إقليم كوسوفا حكماً ذاتياً لم يطل أمده ، وتعلم الألبان في كوسوفا خلال تاريخهم عدم الركون إلى وعود الصرب ، فلم يتخلّوا عن قضيتهم ، وظل أدبهم يشعر بانتمائهم الألباني وإصرارهم على الاستقلال ، وهو مطلب يلقى معارضة حتى من بلدان أوروبا التي تفضل أن تبعد عنها خط التماس القديم بين العالمين الإسلامي والمسيحي ، وما يترتب على هذا التماس من مشكلات. ولذلك تفضل هذه البلدان منح كوسوفا حكماً ذاتياً في إطار الاتحاد اليوغسلافي ، لكن صربيا ترفض حتى هذا المطلب لأنها تعد كوسوفا أرضاً صربية مقدسة ترتبط بالتراث المسيحي مثلما ترتبط بالإسلام. لذلك اضطر الألبان في كوسوفا إلى التخلي عن المطالبة السلمية و تأليف جيش تحرير كوسوفا ، واتجه الأدب الألباني في كوسوفا إلى تمجيد الكفاح المسلح الذي يعدُّ في نظر الأدباء بصمات خالدة في النضال الطويل الذي مرّ به الشعب لتحرير أرضه ووطنه بمفهومه الذي يتخطى حدود بلادهم ليشمل الشعب الألباني خارج حدوده.

وقصيدة « بريشتينا » بل ملحمة البطولة والفداء : كتبها الشاعر الألباني **(لا زار سيليجي)** وهو ذو عقيدة وطنية صلبة ، تغنى بالقومية الألبانية قبل أن تبرز قضية كوسوفا على الصعيد العالمي . تتألف ملحمة « بريشتينا » من ثلاثة عشر مقطعا تراوح طولا ، إذ إن بعض مقاطعها يتجاوز خمسين بيتاً ، فهي ذات نفس ملحمي يعكس روح الملاحم الألبانية التي تم فيها تخليد نضال

الشعب الألباني وأبطاله . وتتلون عاطفة الشاعر فهي تشتد في بعض المقاطع وتخمد بعد تأجج ، كأنها سيمفونية يحكمها الإيقاع العاطفي ، ويرافق المقاطع الطويلة لمسات شعرية ملتهبة ، وخاصة في وصف المآسي والجرائم المرتكبة والبطولات والتضحيات التي قدمها - ويقدمها - الشعب الألباني في كوسوفا وألبانيا على مذبح الحرية .

في المقطع الأول يشبه الشاعر انتفاضة شعب كوسوفا بالشمس الساطعة التي لا يرى الحاقدون المجرمون نورها ، وأعمتهم عصبيتهم عن رؤية الحقيقة الساطعة ، فهم أشبه ببنات آوى لاهمَّ لها إلا العواء، أو الضباع الباحثة عن جيف في القبور الدارسة، لكن رغاءها لن يوقف مد الثورة :

لأن نور أبطال جيش التحرير
ملازم من حديد
وأوردتهم كالمقصات
وتفحّ الأفاعي
لأن الشمس التي تشرق علينا
معتمة كالليل

تفحّ الأفاعي
ونفير الحرب يدعو إلى الجهاد
صدى صوته
يلون جراح الشهداء النازفة

وفي المقطع الثاني يشير الشاعر إلى شمول الانتفاضة مدن كوسوفا وقراها ، وتلالها وجبالها ، حيث أفراد جيش التحرير ينحدرون من كل صوب كالعاصفة ، ويقدمون أرواحهم فداء للوطن :

على قمم الجبال الشامخة
رأينا بطلاً يسقط شهيداً
في الوادي ويردد
صدى أنفاسه الأخيرة في الشعاب
وهو يهاجم ببطولة
مكمن الأفعى
وجُحرها المحروق

وتشارك الطبيعة الشعب الألباني غضبته .. حتى نهر (شكومبي) يجري مزمجراً ، ويحكي قصة جيش التحرير .. وأبطاله الذين سيختمون عهد العبودية ، ويكتبون ملحمة الخلود بدمائهم .. وسيحوكون من ظلام الماضي آمال أمتهم المقبلة .

وفي المقطعين الثالث والرابع .. يرسم الشاعر صوراً من نضال أبناء كوسوفا ومآسي الاحتلال الصربي .. فكل جدار في كوسوفا سيحكي للأجيال هذه البطولات الخالدة :

سَندُوس بأقدامنا أرضنا المحررة
نسقيها بدمائنا
لأن « بريشتينا » القلب .. تعود إلينا
كوسوفا .. قرية محروقة
وسط صراخ الأطفال ونحيب الأمهات

قصة الشهيد ...

ويروي الشاعر قصة الشهيد الذي استشهد خلال التعذيب الوحشي ، والبطل الذي كان يبتسم أمام فوهات البنادق .. قوافل من الشهداء لابد أن يقطفوا ثمار النصر بعد أن توزع رفاتهم بين قرى كوسوفا .

وفي المقاطع السبعة التالية ، يتوجه الشاعر بالتحية إلى « بريشتينا » قطعة الكبدالقابعة في أسفل التلال ، ويُكْبِرُ شجاعة أبنائها في مواجهة التعذيب الصربي والاضطهاد والسجن :

لقد رأينا سورة الجلاد
وهلع الطفل
الذي انتزع عنوة
من بين ذراعي أمه الباكية ..
وهي تقطع شعرها

إن صنوف العذاب وألوان الاضطهاد التي حلّت بالشعب الألباني في كوسوفا لا مثيل لها ، وقد نسجت وشاحاً من الحزن في كل بيت فجع بعزيز تحت قسوة الجلاد الصربي في استنباط أنواع من القهر قبل أن يرمي بضحاياه في القبور الجماعية :

يتجول الجلادون ليلاً
بألبستهم

ووجوههم المتجهمة
ونظراتهم القاسية
وفي قلوبنا تبكي السنون

ويُبدع الشاعر في سرد صور واقعية مؤسية تعكس الجرائم المرتكبة وشعور الحقد على وحشية الجيش الصربي .

وفي المقطعين الأخيرين ، يظهر تفاؤل الشاعر الثوري ، والتزامه طريق النضال الجماهيري ، فيبرز إيمانه بالمستقبل حين (سيسطع السلام في قلب المأساة) ويتحقق الأمل المنشود :

أيها الوطن !
لن نفقد الأمل
سيأتي يوم نخبر العالم فيه
بالدم المراق في مدينة بريشتينا
ونطلب الثأر
المتفجر من دم الشهداء
يلوح الأمل في القلب
ونرى أنفسنا أحراراً
ويتحرر الشعب
ويحلق النسر والثورة
في كبد السماء

وانتفاضة الشعب الألباني المسحوق لدى الشاعر « لازار سيليجي » -كما هو واضح - انتفاضة جماهيرية واسعة لدى أبناء كوسوفا، حيث يؤلف الفلاحون قاعدتها، ولذلك نجد الشاعر لا يفرق كثيراً بين التعابير غير المباشرة أو الغامضة ، لأنه يحرص على مخاطبة أكبر شريحة من الشعب ، وهي الشريحة التي تتحمل عبء المعاناة الاجتماعية والاقتصادية تحت مظلة العسف الاجتماعي والممارسات التي يرفضها منطق العصر الإنساني ، الألبان في كوسوفا كانوا تلك الطبقة المسحوقة التي استنزف كدها المتسلطون والمستغلون من الصرب وسواهم من الحكام ، فكانت كوسوفا خلال تاريخها الطويل ميداناً للاستغلال والاستنزاف حتى تساوى لدى أبنائها الموت والحياة ، كما يتضح من وصف الشاعر للواقع المؤلم في كوسوفا ... حتى باتت المواجهة بالعنف الحل الوحيد لكسر شوكة قادة الصرب وغطرستهم.

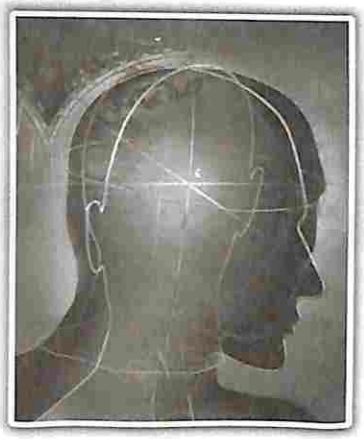

محمد عبدالجواد
- مصر -

هل تعود الذاكرة

أوقفتني .. سألتني :
هل تعود الذاكرة ؟ !!
قلت : إني لست أدري !!
صفعتني .. ثم قالت :
أيها الأبله مالك ؟!!
لاتبالي ، فبدون الذاكرة
أنت فى البر كسيح ،
أنت في اليم غريق ،
يمسك الموج وريدك
يدفع الروح إلى كف الردى
قلت : لا أعرف ما بي !
واغترابي .. لا يضاهيه اغتراب !
وعذابي .. يطعم الأنف التراب !!!
فأصاخت ، ثم قالت :
أنت يا مسكين تشكو .. تستغيث !
حيث لا تجدي الشكاوى
ادع رب العرش وحده ..
ليجيبك
إنما الدنيا كفاح ! لا مزاح !!
انزع اللقمة من كف الضباع !
اجمع الأشلاء من جوف الذئاب !
أدرك اللحظة في ركب الزمان !!
لتعود الذاكرة !
اجعل التاريخ نهرا
ترشف الرشفة منه كي تفيق !!
فتعود الذاكرة !!